الفصل الثامن

چون مِلْتُنْ John Milton

(١٦٠٨ — ١٦٧٤)

انقضى عصر اليصابات بأدبه المرح الجذل الطروب ، فلاحت فى الأفق علائم عصر جديد وروح جديد ؛ فهاهو القرن السابع عشر قد أقبل ثم انتصف أو كاد ، وهاهى روح التزمت فى الحياة والأدب قد ملكت على النفوس زمامها ، وإنما تجسمت تلك الروح وبلغت ذراها فى شاعر العصر : چون مِلْتُنْ .

ولقد أجمع النقاد على أن « ملتن » أحد ثلاثة هم أعظم الشعراء قاطبة فى الأدب الإنجليزى . ولسنا نعنى بهذا أنك لا تجد بين أدباء الإنجليز عدداً من الشعراء قد يبلغ العشرين ممن يرتفعون فى بعض أدبهم إلى الأوج الذى ارتفع إليه ملتن ، وإنما نعنى أن ما أداه هذا الشاعر العظيم من تجسيد روح عصره فى شعره ، ومن الصعود بشعره إلى أوج لم يهبط منه ، لم يتوفر فى تاريخ الأدب الإنجليزى كله إلا فى ثلاثة : « شيكسبير » و « ملتن » و « وردزورث » . فقد تجد من شعراء عصر اليصابات من يبلغ فى أروع إنتاجه مبلغ شيكسبير ، لكنك لا تجد بينهم من يضارعه فى اتساع أفقه وفى المحافظة على ما ارتفع إليه ؛ فكل ما أنتجه شعراء عصر اليصابات تجد له نظيراً عند شيكسبير ، والعكس غير صحيح ، أعنى أن لشيكسبير آيات لا يدنو منها شىء مما أنتجه سائر الشعراء فى عصره ؛ وهكذا قل فى « ملتن » و « وردزورث » .

كان « ملتن » أصدق لسان يعبر عن خواطر عصره كله ، فكانت له غاية واحدة رئيسية ينشدها فى كل ما أنشد من الشعر ، وما تلك الغاية المنشودة إلا بغية عصره ؛ وأعنى بها أن يقيم للناس برهانا على عدل الله وحكمته ؛ تلك هى غايته التى قصد إليها تلميحاً فى شعره كله ، وأفصح عنها تصريحاً فى مطلع « الفردوس المفقود » ، ولكى نفهم روح العصر الذى عاش فيه ملتن ، نعود خطوة إلى الوراء حيث عصر اليصابات ، فماذا نرى ؟ نرى

حيوية جارفة تسود العصر ، حيوية تدفع الإنسان إلى الانغماس فى كل ما يزيده استمتاعا بالحياة دون أن يجد من العقل أو الضمير ما يكبحه ؛ فمغامرات فى جوف المحيط ، وتلقف لكل ثقافة جديدة يستخرجها رجال النهضة من أسفار القدماء ؛ نعهد اليصابات فى الأمة هو مرحلة الشباب الفتىّ الطموح ، فيه تحطيم القيود الذى نعهده فى الشباب ، وفيه الأمل الباسم ، وفيه الجدة والنضارة ، وفيه الرغبة الملحة فى تحصيل العلم ، وفيه الخروج على معايير الأخلاق ، وفيه حب الاستطلاع وركوب المخاطر مما نراه كذلك فى فتوة الشباب .

فلما انقضت عن العصر دوافع الشباب ونزواته ، وذهبت عنه نضارة الشباب وروعته ، أقبل على الناس عهد استيقظ فيه الضمير ليحاسبهم على ما قدمت أيديهم فى العهد الذى أدبر ، عهد لم يعد يقبل الحياة بكل ما فيها وهو بها فرح مغتبط ، بل أخذ يقدر خيرية العمل وشريته قبل أدائه ؛ عهد أراد فيه القوم أن يحتكموا إلى الكتاب المقدس كما هو بحروفه وألفاظه بغير تأويل وتحريف ، وذلك هو عهد التزمّت الدينى الذى كان له شاعرنا جون ملتن لسانه المعبر الناطق .

« جون ملتن » سليل أسرة من أوساط الناس ؛ ولد فى لندن عام ١٦٠٨ ، وأكمل تعليمه فى كيمبردج عام ١٦٣٢ حيث درس الآداب القديمة درساً دقيقاً ، وغادر الجامعة وهو يعرف اللغة العبرية خير معرفة ، كما يجيد من الآداب الحديثة الإنجليزى والإيطالى والفرنسى ؛ وفضلا عن ذلك فقد برع فى الموسيقى واستمد منها لذة ومتعة .

وما لنا نطيل الوقوف عند أنباء حياته كأنه ليس أمامنا خضم من أدبه زاخر ، فلنأخذ من فورنا فى استعراض هذا التراث العظيم ، وسنقسمه لتيسير دراسته إلى ثلاث مراحل :

١ — المرحلة الأولى :

شعره قبل سنة ١٦٣٩ (أى قبل أن يجاوز الحادية والثلاثين من عمره) .

كان من أروع شعره الذى أنتجه منذ غادر الجامعة حتى سنة ١٩٣٨ قصيدتا « لَلِجْرو »(١) — أو الطروب — و « إِلْبِنْسروزو »(٢) — أو المتأمل — ثم مُقَنّعةٌ مشهورة عنوانها

(١) L'Allegro .　　(٢) Il Penseroso .

« كومَس »[١] وأخيراً قصيدة تعد من آيات الأدب الإنجليزى هى « لِسِداس »[٢] التى رثى بها صديقه « كِنْج » .

ففى القصيدتين المتعارضتين « لِلَجْرو » و « إلْبنسروزو » أى الطروب والمتأمل يصور لنا الشاعر الحياة كما تبدو فى حالتين مختلفتين ، يصورها كما تبدو فيمن يستبشر بالحياة ويطرب لها ويسترعيه منها اللذائذ والمباهج ، ثم يصورها كما تبدو فيمن يغرق فى تفكيره وتأمله ويأخذ الحياة من جانبها الجاد الرصين ؛ وهاتان الحالتان على اختلاف ما بينهما إنما تصوران وجهين لحياة الشخص الواحد ، فليس منا مَنْ لايطرب للحياة ساعة ثم لايشهد فيها إلا الجد ساعة أخرى ؛ ففى قصيدة الطروب تلمح الشاعر وهو فرح بمباهج الطبيعة سعيد هانئ ، وفى قصيدة المتأمل تراه فى تفكيره الجاد مُثْقَل الفؤاد مهموم النفس . ولقد كان يُظن أن ملتن أراد بالقصيدة الأولى أن يصور لنا الرجل من حاشية الملك فى عصره وقد كان فارغ القلب لايرى فى الحياة إلا لهواً ومرحا ، وأنه أراد بالقصيدة الثانية أن يصور الرجل من « المتزمتين » الدينيين الذين كان الشاعر واحداً منهم ، وقد كان لاينشد فى الحياة إلا الجد الذى لايعرف المزاح والعبث ؛ ولكن عاد رجال النقد فبينوا أن الشاعر لايريد بقصيدتيه إلا أن يصور نفسه بوجهيها ، فليس من اللذائذ التى يحتفل لها فى قصيدة « للجرو » ما يتنافى مع خلق التزمت الدينى الذى عرف به ملتن ؛ فمباهج النفس فى هذه القصيدة هى الربيع ونضارة الصباح وتغريد القُبَّرة وشروق الشمس والرجال والنساء يشتغلون فى الحقول ، والقصص يروى بجوار المدفأة فى المساء ، وضجة الحياة فى المدينة الشامخة بأبراجها والروايات التمثيلية تجرى على المسارح .

وأما فى قصيدة « إلبنسروزو » فترى الشاعر بين كتبه فى برج عال منعزل ، يقرأ الفلسفة والعلم ، وتراه إذا غادر برجه ليمشى فإنما يختار المماشى المنعزلة بين الأحراش ، ويقصد إلى الكنائس التى بنيت على أساس الفن القوطى الجليل ؛ تراه يلتفت إلى غروب الشمس لا إلى شروقها ، وإذا أنصت إلى تغريد الطير فإنما ينصت إلى البلبل وهو يغنى فى جوف الليل — هكذا يصور لك الشاعر نفسه فى حالتيه ، لكنه يختار لنفسه الحالة الثانية ويؤثرها على الأولى .

---

(١) Comus .

(٢) Lycidas .

استمع إليه فى قصيدة «لَاجِرْو» — أى الطروب — وهو يقول على لسان شاب جذل :

عنِّى أيتها الكآبة الكريهة ، عنِّى ؛

* * *

ثم أقبلى أيتها الآلهة الجميلة الطليقة ،

يا مَنْ يُطْلَقُ عليها فى السماء «يوفروزين» .

ويسميها الناسُ «بالمرح» المنفِّس للكروب

* * *

أقبلى وفى يُمْنى يديك هاتى

«الحريةَ» الجميلةَ — عروسَ الجبال الشاهقات ؛

وإذا كرَّمْتُكِ يا ربة المرح بما تستحقين

فاملكينى يا ربة المرح بين التابعين ؛

حتى أكون لها ولك فى الحياة رفيقا

فأعيش فى برىء اللذائذ حراً طليقا ؛

وأسمع القُبَّرة وهى تأخذ فى طيرها

فتهز وهى تغنِّى جمودَ الليل بسحرها ؛

وتظل صداحة فى برجها العالى فى السماء

حتى يشرق الفجر بطلعةٍ حسناء ؛

* * *

سأظل أستمع إلى كلاب الصيد والبوق

فى طربٍ توقظُ الصباحَ بعد رقاد

من سفح تلٍّ أشيب

بصرخة الصدى خلال الغابة العالية ؛

فآناً ترانى فى غير خفاء سائرا

بجانب صفِّ الدوح فوق خُضْر التلال ،

فأواجه فى الشرق مدخلا

حيث تبدأ الشمس العظيمة موكبها الجليل ،
ملفعة بلهب وضوء من كهرمان ،
والسحائب ترتدى من ألوان الثياب ألوفا ؛
بينما الحرّاث منى قاب قوسين
يَصْفُرُ فوق حقله المحروث ،
وحالبةُ اللبن تغنّى طربا
وحاصدُ النجيل يُرْهِفُ منجلا
والرعاةُ كلٌّ يقصُّ قصته
إذ تفيأ ظل الأشجار فى الوادى

وهكذا ترى الشاعر فى حالة طربه وبهجة نفسه يتخير المواضع التى يرى أنها تزيده طربا وبهجة .

أما فى « إلبنسروزو » — أو قصيدة المتأمل — فتراه يهيب بصنوف المباهج الفارغة الخادعة أن تنفضّ عنه فما هو لها ولا هى له ؛ فهو الآن يريد أن يستمع إلى البلبل فى صوته الحزين لا إلى القبّرة فى تغريدها الشجىّ ؛ وهو الآن يريد أن يشهد المأساة على المسرح تبدو له بجلالها الرهيب ، فهى أقرب إلى نفسه من ألوان المسرحيات الأخرى التى تزدان بصنوف الزخارف ، كالمقنّعات والمواكب التى عرفتها الأعوام السوالف والتى صادفت هوًى عند « الطروب » فى قصيدة « لليجْرو » ، وهو يؤثر أنغام الأرغن الرزينة على ألحان الغناء الطربة الشجية ، ويفضل الحياة يملؤها العمل على الحياة تقضى فى أسباب المتعة .

وبعد فالقصيدتان فى حقيقة أمرهما وحدة متصلة ، إذ هما تبينان معاً كيف تكون الحياة المعقولة بوجهيها .

أما مُقنّعتهُ[1] المشهورة « كُومَسْ » فقد استمد مادتها من الأدب القديم ومن أدباء النهضة وعصر اليصابات على السواء ؛ فقد رجع إلى أسطورة « سيرسى »[2] الساحرة التى وردت فى الأوذيسية وجعل « كُومَسْ » ثمرة اتصال هذه الساحرة « بباكس » — رب

(١) راجع ماقلناه فى « المقنعات » عند الحديث على « بن جونسن » .
(٢) راجع هذه الأسطورة فى تلخيصنا الأوذيسية فى الجزء الأول من هذا الكتاب .

الخمر عند اليونان — وجمع فيه خصائص الأبوين معا ؛ ولهذا فأنت تصادف فى هذه المقنعة إشارات كثيرة للأساطير القديمة كما تجد فيها مايذكرك آنا بعد آن بشيكسبير وسبنسر وفلتشر ممن استمد منهم الشاعر واستعان بهم ؛ أضف إلى هذا وذاك ما تراه فى هذه المقنعة من عناصر فلسفية استقاها من أفلاطون ؛ ومع ذلك كله فالأثر الأدبى فى النهاية مطبوع بطابع الشاعر وهو مبتكر جديد ، فيه ما امتاز به ماتن من نغم فى اللفظ وجلال فى المعنى .

تفقد البطلة فى هذه المقنعة إخوتها فى الغابة ، فيأسرها الإله العربيد ويحاول أن يعتدى على عفتها ، لكنه يحاول عبثا ، فهيهات أن ينال من سيدة يصونها الطهر والفضيلة والعفاف ؛ وكان يحرس السيدةَ روحٌ ، فعمل هذا على أن يهدى إخوتها إلى مكانها ، فيسرع اليها الإخوة ويطلقون سراحها ، وينتزعون من الساحر جرعة السمِّ التى همَّ أن يصبَّها فى أسيرته ، وعندئذ يلوذ الساحر وأتباعه بالفرار .

اقرأ ماتقوله « السيدة » إذ ألفت نفسها فى الغاب وحيدة .

... ... إن ألوف الأوهام
لتزدحم الآن فى مخيلتى ،
فأطيافٌ تنادى . وظلالٌ بشعة بأصابعها تشير ،
وألسنةٌ من هواء تنطق بأسماء الرجال ،
على الرمال والشطئان وفى قفر البوادى ؛
ولشدَّ ما تُفْزع هذه الخواطر ، لكنها لن تطير شعاعاً .
بعقل نشأ على الفضيلة ، يسير دَوْماً وفى حراسته .
بطلٌ قويٌّ مخلص : هو « الضمير » .
مرحباً أيها « الإيمان » الذى لم يزغ له بصر .
مرحباً أيها « الأمل » الذى لم تلطخ له يد ،
أيها المَلَكُ المحوَّمُ بأجنحةٍ من نضار ،
مرحباً أيها « العفاف » الذى لم تَشُبْه الشوائب !
إنى لأراك رأى العين ، وهأنذا قد آمنت .
أن الله — وهو « الخير الأسمى » — الذى ليست الشرور كلها

سوى رُسُلِ انتقامٍ تخدمه كالعبيد ،
آمنت أن الله باعثٌ بحارسٍ لألاء إنْ دعا الداعى ،
ليذود عن حياتى وشرفى عدوان المعتدى

وإنما أراد ملتُنْ فى « كومَس » أن يهاجم الإباحية وتحلل الأخلاق الذى شاع بين حاشية الملك شارل الأول ، وأحبّ أن يرسم لهؤلاء المستهترين مثلا خلقياً أعلى مما يعتدون ؛

ونختم الحديث عن شعر المرحلة الأولى بكلمة عن قصيدة « ليسداس » وهى المرثية الرائعة التى بكى بها الشاعر زميله فى الدراسة « ادورد كِنْج » الذى ابتلعه اليمّ وهو يعبر البحر إلى إيرلنده .

و « اسداس » قصيدة من الشعر الريفى [1] الذى يحاول فيه الشاعر أن يُلبس أشخاصه أثواب الرعاة وأن يُنطقهم بحديثهم وأن يجعل الجو كله فواحا بأريج الريف الساذج ؛ فهو يطلق على صديقه « كنج » اسما ريفياً هو « لسداس » ، وهو يشير إلى زمالتهما أيام الطلب فى الجامعة بقوله :

... ... أرْضعا رحيق تلٍّ واحد
وأطعما سويا من قطيع واحد ، إلى جانب الينبوع والظل والجدول

وهو يستهل القصيدة بهذه الأبيات :

إنى لأعودُ إليكِ من جديدٍ يا غصون الغار ، ومن جديد
أعودُ إليك يا أشجار الآس الداكنة التى أبداً لا يجف لبلابها ؛
وإنما جئتُ لأقطف منك الثمار فجًّا نيئا
وبهذه الأصابع العنيفة الغليظة
سوف أهشّم منك الأوراق قبل أوان النضج [2] ؛
لكنها الضرورة المرة والحادث الحزين العزيز

---

(١) راجع نشأة الشعر الريفى فى الجزء الأول من هذا الكتاب صفحة ١٨٣ وما بعدها .

(٢) المقصود بغصون الغار وأشجار الآس هو الشعر ، ومجمل المعنى أنه يعتذر للشعر إذ يحاوله قبل أن تنضج فيه ملكته .

ويدفعانى إلى القَطْف قبل أوان الثمر ،
لأن « لسداس » قد مات ، مات قبل ريعانه ،
مات لسداس فى شبابه ولم يخلِّفْ ضريباً ،
فمن ذا الذى لا يُنْشد الشعر من أجل لسداس ؟
وهو الذى عرف كيف ينشد الشعر وينشئ سامى القريض ؛
إنه لايجوز أن يطفو على كفن من الموج [1]
بغير رثاء ، ولا أن تلفحه الرياح الحرور
دون أن نجزيه بدمعة حارة

كتب مِلْتُنْ قصيدة لسداس سنة ١٦٣٧ ، وهو ما يزال فى بيت أبيه الذى أوى إليه بعد أن غادر الجامعة ، ولم يكن بعد قد اشتغل بالحياة العملية ، بل كان يواصل الدراسة بالقراءة ؛ وفى العام نفسه ماتت أمه ، فلم يلبث أن ارتحل إلى أوربا يجوب أقطارها ، وزار إيطاليا بصفة خاصة والتقى بأعلام الأدب فيها ، وهنالك كتب بعض القصائد اللاتينية والإيطالية ، ثم أسرع بالعودة إلى بلاده حين جاءته الأنباء أن حَبْلَ الأمور قد اضطرب فيها ، وهنا تبدأ مرحلته الأدبية الثانية .

٢ — المرحلة الثانية ١٦٤٠ — ١٦٦٠ :

فى هذه المرحلة أنتج مؤلفاته السياسية وأدبه النثرى ؛ وكان من أول ما كتبه بعد عودته إلى لندن رسالة صغيرة « فى التربية » نشرت سنة ١٦٤٤ ، وفيها يقترح أن تشمل تربية الناشئ ثقافة عريضة تقوم على أساسين : هما الآداب القديمة والمواد التى تنفع فى الحياة العملية ، فيدرس الطالب الأدب والفلسفة والسياسة والقانون والطب وفن الحروب ؛ إذ لابد أن يعنى فى التربية بأجسام الناشئين وعقولهم ونفوسهم على السواء ، ثم هو يوصى إلى جانب ذلك بالموسيقى التى تبعث البهجة فى النفوس .

وكان قبل نشره لرسالة التربية قد كتب بضع رسائل دينية يدافع فيها عن عقيدة « المتزمتين » ؛ وعقّب عليها بمجموعة أخرى من الرسائل الصغيرة تدور حول الطلاق

(١) يشير إلى موت صديقه غرقاً .

ووجوب تنظيمه ، وذلك على أثر فشله فى زواجه ، فقد كان تزوج من « ماری پاول »[١] التى لم يطل بها العهد معه حتى ذهبت فى زيارة إلى أبويها وأبت أن تعود إليه .

لكن حماسة ملتن فى هذه الرسائل الخاصة بالطلاق سرعان ما فترت حين استسلمت له زوجته بعد نفور وعصيان ، وأنجبت له ثلاث بنات ، وعاشرته فى هدوء حتى جاءتها المنية وهى ما تزال شابة فى عامها السادس والعشرين .

وننتقل الآن إلى أشهر ما جرت به يراعة مِلْتُنْ نثراً ، وأعنى رسالة عنوانها « أرْيُو پاچتكا »[٢] — فقد حدث فى سنة ١٦٤٣ أن فرض على النشر رقابة بحيث لاينشر كتاب جديد إلا إذا أجازته لجنة أقيمت لذلك ؛ فقابل ملتن هذا النظام بالمقاومة والتحدى ، ونشر أولى رسائله الخاصة بالطلاق دون أن يستأذن فى نشرها الرقيب ، وزاد فى تهكمه بأن أهدى الرسالة إلى البرلمان الذى فرض تلك الرقابة الأدبية ؛ ثم عقّب على ذلك التحدى بنقد صريح وجهه للرقابة فى هذه الرسالة التى نحدثك عنها والتى عنوانها « أريو پاچتكا — خطبة موجهة إلى برلمان إنجلترا دفاعا عن حرية الطباعة بغير رقابة » وهاك نموذجا من هذه الرسالة :

« إننا نعلم أن الخير والشر فى هذا العالم ينموان معا لايكادان ينفصلان ... ... إنه من جوف تفاحة واحدة أكلها آدم قفزت إلى هذا العالم معرفة الخير ومعرفة الشر اختلطت إحداها بالأخرى ، بل ربما كان ذلك هو ما قدر لآدم أن يسقط فيه ، وهو معرفة الخير والشر ، أعنى معرفة الخير عن طريق الشر ؛ وإن كانت هذه هى طبيعة الإنسان فأية حكمة نستطيع أن نختار وأى جهد يجب أن يبذل إذا اجتنبنا معرفة الشر ؟ إن الذى فى وسعه أن يرى الرذيلة وأن يفهمها بكل ما تحوى من مغريات ومتع ظاهرة ثم يمتنع عنها ليختار لنفسه ما هو فى حقيقته خير منها وأفضل لَهُوَ المسيحىُّ الصحيح الذى يسير على الهدى . إنى لا أستطيع أن أثنى على فضيلة لاذت بالفرار وغلّقت دونها الأبواب ، فضيلة ينقصها

---

(١) Mary Powell .

(٢) Areop agitica وهـذا العنوان مستمد من عنوان خطاب مكتوب لخطيب يونانى هو إيزوقراط ، وجهه إلى مجلس أثينا الوطنى ، ووجه الشبه هو أن كليهما خطبة مكتوبة يوجهها الخطيب إلى نواب الأمة ، وإنما أطلقت على خطبة إيزوقراط هذا الاسم لأن نواب أثينا كانوا يجتمعون على جبل اشتقت من اسمه هذه التسمية .

المران والجهد ، فضيلة لا تقتحم الحياة باحثة عن عدوها لتهاجمه ، بل تنكص على عقبيها وتخلّف ميدان السباق حيث الإكليل الخالد جدير أن يُجْرَى فى سبيله ليُظفَر به ، ولكن بعد عناء الحر والغبار .... إذن فتلك الفضيلة التى تحجم عن التأمل فى الرذيلة . والتى لا تدرى كل ما تعده الرذيلة أتباعها من جزاء ، ثم تنبذها بعد هذا ، إنما هى فضيلة خاوية وليست مقطوعاته بالفضيلة النقية ، إن بياضها بياض الروث ... » .

ولنمض الآن مسرعين ، فلا نقف عند سائر نثره السياسى — الذى أخذ يخرجه رسالة بعد رسالة ، والذى أفقده البصر وهو فى عامه الرابع والأربعين — لنقول كلمة قصيرة فى الشعرية ننتقل بعدها إلى آيته الكبرى « الفردوس المفقود » .

فقد صمت ملتن عن قول الشعر عشرين عاما امتدت منذ عودته من إيطاليا حتى عادت الملكية إلى إنجلترا بعد أن أبعدت عن البلاد حينما كان يتولى الحكم فيه « كرمول » الذى كان شاعرنا من أنصاره ، نقول قد صمت ملتن عن قول الشعر خلال تلك الأعوام العشرين التى تفرغ خلالها إلى النثر ، لأنه أداة أنسب للعراك السياسى الذى اشتغل البلاد ، صمت شاعرنا عن قرض الشعر إلا « مقطوعات شعرية » قالها بهذه المناسبة أو تلك ، وبعض هذه المقطوعات ذاتى يعبر عن حالته الشخصية كالمقطوعة المشهورة التى قالها حين فقد البصر ؛ وبعض المقطوعات متصل بالأحداث السياسية التى شغلت أكبر جهده وانصرف اليها أكثر نبوغه .

ولما كان عام ١٦٥٨ — وهو العام الذى فقد فيه زوجته الثانية التى أحبها حباً شديداً [١] — مات كرمول رئيس الجمهورية فذهبت بموته آمال أنصار الجمهورية ومن بينهم ملتن ، وما هو إلا أن عاد إلى البلاد شارل الثانى سنة ١٦٦٠ ، حتى أوى الشاعر إلى مكان يختبئ فيه لعله ينجو من الخطر الذى كان لا بد أن يحيق بأعداء الملكية ؛ وظل فى مخبئه حيناً ، وأحرقت بعض كتبه علناً ، وبهذا انتهى جهاده السياسى وانصرف بكل مجهوده إلى آياته الخالدات . والمقطوعة الشعرية عند ملتن قافية خاصة به ، يجارى « بترارك » فى بعضها وينفرد هو ببعضها ، حتى أصبحت فى مجموعها مطبوعة بطابعه ، تختلف عن المقطوعة عند سبنسر وعند شيكسبير ، إذ كان لكل من هذين قافيته الخاصة وتقسيمه الخاص .

---

(١) تزوج ملتن بعد موت هذه الزوجة من زوجة ثالثة .

فالمقطوعة الشعرية — كما تعلم — قوامها دائما أربعة عشر بيتا ، إلا أن تقسيم هذه الأبيات ومجرى القوافى فيها يختلف عند الشعراء الذين عالجوها ؛ فلقد يقسمها إلى رباعيتين وثلاثيتين أحيانا ، أو إلى رباعيتين وثلاثة أزواج أحيانا أخرى ؛ وفى الحالة الأولى تجرى القافية هكذا :

(ا — ب — ب — ا) (ا — ب — ب — ا) (حـ — د — هـ) (حـ — د — هـ)

وفى الحالة الثانية تكون القافية على هذا النحو :

(ا — ب — ب — ا) (ا — ب — ب — ا) (حـ — د) (حـ — د) (حـ — د)

وهو فى الرباعيتين يحذو حذو بترارك ، ثم يجدد فى الستة الأبيات الأخرى .

ومن أمثلة هذه المقطوعات :

فى عمـــاه

إنى إذ أرى كيف غاب عن عينىّ الضياء .
وبت أقضى نصف دهرى فى عالم مقفر رحيب ،
وكيف أصبحت نفحة الشعر التى إخفاؤها عندى كالموت الرهيب
معطلة بغير جدوى رغم أن نفسى أشد انحناء .
لعلى بالشعر أخدم خالقى .
فأقدم بين يديه — خوف اللوم — الحساب ؛
وهل يقتضينا الله واجب اليوم كاملا ، ودون الضوء حجاب ؟
هكذا أسائل فى عناء ، وسرعان ماأرد على الخوف المقلق :

ليس الله محتاجاً .
من الإنسان إلى عمله ومواهبه .
فخير من يخدمون الله هم خير من يصبرون على قضائه .

لله مُلْك الأرض والسماء ، يأمر فتسرع الألوف .
فى البر والبحر لا تعرف قرارا ؛
وكذلك يخدم الله من يصبر ويتنظر .

٣ — المرحلة الثالثة ١٦٦٠ — ١٦٧٤ :

ها قد زالت من الشاعر شواغله السياسية بعودة الملكية إلى انجلترا ، فانصرف إلى تحقيق أمنية طالما تمناها ، وهى أن ينشىء فى الشعر آية خالدة لاتعرف لها بين ما أنتج الشعراء ضريبا ، ففيم يكتب ؟ أيختار « أرثر » بطلا لآيته الكبرى التى اعتزم أن ينهض بانشائها ؟ لقد جال بنفسه هذا الخاطر ، ثم لم يَطُل ، ولم يلبث أن اتجه بفكره نحو موضوع قصيدتيه الكبراوين « الفردوس المفقود » و « الفردوس المردود » . أما الأولى فتقص ثورة الملائكة على الله ثم كيف تم خلق الإنسان وإغراؤه وسقوطه طريداً من الفردوس ؛ وأما الثانية فتصف كيف حاول الشيطان أن يغرى المسيح وهو فى البيداء المقفرة بشتى المغريات لكنه لم يوفق فى إغرائه وخرج المسيح ظافرا .

ونريد الآن أن نقف وقفة طويلة عند « الفردوس المفقود » لأنها فى آداب العالم درة فريدة .

تقع « الفردوس » فى اثنى عشر جزءا ، يمكن تقسيمها إلى ثلاث مجموعات ؛ فثورة الملائكة وكفاحهم ضد الإله يشغل الجزء الأول والثانى والثالث كما يشغل الشطر الأعظم من الجزءين الخامس والسادس ؛ وخلق الإنسان وشفاعة المسيح له يرد ذكرها فى الجزءين الأول والرابع ، ثم يشغل جانباً من الخامس والسابع والثامن ؛ وإيقاع الشيطان بالإنسان ثم عصيان آدم وحواء وطردهما من الجنة هو موضوع الأجزاء الباقية من التاسع إلى الثانى عشر .

وهاك خلاصة لهذه الملحمة العظيمة .

يستهل الشاعر قصيدته بدعاء يوجهه إلى ربة الشعر يستلهمها الوحى :

يا ربة الشعر أنشدينا :

كيف كان من الإنسان أول العصيان ؟

ما تلكم الشجرة الحرام وما جناها ؟

* * *

فإياكِ أستعين على نشيدى العصيب .

الذى أعتزمُ ألا يلوى فى تحوامه .

حتى يحلِّق صاعداً فوق سامق « أونيا »
ينشد غايةً لم يحاولها قبلُ نثر ولا قصيد

ثم يتجه الشاعر إلى المسيح :

وأنت ياذا الروحُ إليك أنحو
يا من يؤثر على جلاميد المعابد طهر القلب والتقوى
فأتنى السلم إنك أنت العليم
قد شهدتَ الوجود منذ فاتحة الوجود

* * *

اجْلُ ياذا الروحُ قاتمى ، وارفع وطيء دعائمى ،
علِّى بهذا المقال الجليل أبلغ شأواً ،
فأكون للحكمة السرمدية ترجمانا
ولرحمة الله بالإنسان برهاناً
ألا حدثينا ... ...
عن أبوينا الأولين : ماذا دعاهما ...
أن يخرجا على « البارى » فيهويا ، وأن يعصيا مشيئة الله
لحظور واحد ؟ ... ...
إنه « الأرقم » الرجيم ثارت غيلتُه
حقداً وغِلاً ، فكر بأم البشر

* * *

فقد دعاه الأملُ الطامع فى العرش والملكوت
أن يثير فى الجنة حربا وقودها الغرور والفجور ،
فخاب الرجاء ، إذ طوح به الله ذو الجبروت
فهوى من السماء يتَّقِدُ لهيبا ...
وتردَّى فى هاوية ما لها من قرار ، بها يأوى
مغلولا بصمِّ السلاسل يصطلى النار جزاء ...

وفى قرارِ مهواه تِسْعُ فضاوات
مما يذرع به الأناسىّ خطو الليل والنهار
تردّى الأثيم هزيلا بصحبة شيعته
يتقلب فى حمأة الجحيم ...

* * *

ورأى ما حوله موحشاً قفراً يبابا
ورآه فى جبٍّ مخيف التهبت جوانبه التهابا ،
كأنه أتون سحيق مستعر ، ناره لا تبث النور

* * *

فهو ما ينفكّ يصلى عذابا مقيما وطوفانا من حميم
تغذو لظاه شواظ تذكو أبداً ولا تخبو
فذلك مستقر العصاة كما أراده عدل الإله

* * *

وهنالك سرعان ما شهد الأثيم رفاق هُوِيِّه
... ... ورأى إلى جواره ... « إبليس » ،
فاتجه إليه كبير أعداء الله
وهو من سمى فى السماء منذ ذلك الحين « شيطانا »
وألقى عبارة جريئة دوّتْ فى ذلك السكون الرهيب ، فقال
« أفأنت هو ؟ ... ...
لئن كنتَ من وشجنى به يوما
تبادل العهد واجتماع الرأى والكلمة ، واتحاد الأمل ،

* * *

فماهى ذى أواصر الشقاء توشج اليوم بيننا ، فتوحّدُ هُلْكنا ؛
أرأيت إلى أى هاوية أوينا ، ومن أى الذُّرى هوينا ؟
ألا إن الله فى غضبته ، ساق الدليل على رجحان قوته ...

ولكنى على ذلك لست بنادم ، و إن صبّ علينا « الظافر » القادر
ما استطاع فى صورته من صنوف العذاب !
فعزمى المصمم لن يحول ، و إن حالَ منى رونق الإهاب

* * *

وماذا إن فاتنا النصر فى حومة الوغى ؟
فنحن بذلك لا نفقد كل شىء
وهل يكون مهزوماً من له هذا العزم الحديد
والثأر الشديد والمقت الذى لا يزول ؟
ومن له هذا الجنان الذى لا يلين ولا يحول ؟ ......
فما كان أخسّها ضعةً
لو أنى جثوت له مسترحماً وركعت ضارعاً ،

* * *

فلنثرها على عدوّنا الألدّ — بالقتل أو بالختل — حرباً عوانا

* * *

فلم يلبث رفيقه الجرىء أن أجاب :
« مولاى ! وأنت زعيم العديد من العُتاة مُتَوَّجين
قُدْتَ إلى الوغى تحت لوائك « السيروفيم » مدججين

* * *

يا ويح نفسى أن ترى جلياً هذا الخطب الرهيب
الذى طَوَّحنا فأشجانا وهَزَمَنا فأردانا
وأضاع منا الجنة ، وهوينا به إلى هذا الحضيض

* * *

لم لا يكون الله قد أبقى على نفوسنا وقوانا ،
فلم ينتقصها ليشتد أذانا ونضطلع بمرّ العذاب ،
لكى يرضى فينا غيظه الناقم ،

obeikandl.com

أو ليأسرنا بما شاء من فادح الأعمال ، فنستطيع الأداء ؟
فقد أمسينا له — بحق النصر — عبيداً أرقاء ،
إن شاء أصلانا النار فى قلب الجحيم
و إن شاء سخّرنا فى اللجج البهيم ،
فإن أحسسنا بالقوة موفورةً ، فأين فى ذلك الفَنَاء ؟
وهل أجدى علينا خلود البقاء إلا دوام الشقاء ؟

وأخيراً احتشد الملائكة الثائرون وتوسطهم الشيطان وخطب فيهم بعزمه على مقاتلة الله تعالى ؛ فاجتمعوا يتداولون الرأى ، فمنهم من يؤيد فكرة القتال ومنهم من يفندها ؛ وأخيراً نهض إبليس — وهو الذى يتلو الشيطان فى رفعة المقام — واقترح رأياً كان قد سبقه إليه الشيطان ، وهو أن يحاربوا الله فى مخلوقه الجديد وهو الإنسان ، وصادف الاقتراح قبولا ، لكن نشأت مشكلة وهى : مَنْ ذا الذى ينهض بعبء البحث عن العالم الجديد الذى فيه الإنسان ، وعندئذ تطوع الشيطان نفسه أن يأخذ على نفسه هذه المهمة ؛ وانفض اجتماع الملائكة الثائرين وانصرف كل إلى سبيله ، فهذا إلى رياضة وذاك إلى قتال وثالث إلى جدال ؛ وأما الشيطان فقد شق بجناحيه الطريق إلى أبواب الجحيم التسعة ، تحرسه « الخطيئة » وابنها الشائه وهو « الموت » ، وفتحت « الخطيئة » أبواب الجحيم للشيطان فخرج منها طائراً .

* * *

هنا يتوجه الشاعر بالقول إلى « الضياء » ويرثى لماه ، ليتخذ من ذلك مقدمة ينتقل منها إلى صورة يصور فيها السماء ويصور حديثاً يدور بين « الأب » (الله) و « ابنه » (المسيح) :

عليك سلام الله أيها الضياء الأقدس ، يا أول ما أنجبت السماء !
أنت الذى تفجّر من ذاتٍ ساطعةٍ فيضاً ساطعاً ؛
ومن يدرى أى نبع سقاك ؟ فقد كنتَ — يا ضوء —
قبل أن تكون الشمس وقبل أن تُرفع السماء ، ثم جاء أمر الله ،
فكسوت يا ضوء — كأنك الثوب —
عالما نهض من الماء العميق ،
عالماً نشأ من العدم وخرج من عماء اللانهاية !

لكنك لم تَعُدْ إلى عينىّ اللتين تدوران عبثاً فى المحاجر .
تبغيان منك شعاعا نافذاً ، لكن ليلهما بغير فجر !
كلما حال الحول عادت الفصول ، والنهارُ .
ليس إلىّ يعود ، كلا ولا حلو البوادر التى تنبئ باقتراب المساء والصباح .
ولا يعود الىّ رونق الربيع المزدهر ولا وَرْدُ الصيف .
ولا قطعان الأغنام والماشية ولا طلعة الإنسان الإلهية ،
ففى مكان ذلك كله أرى قتاما ، والظلام السرمدى .
يحيط بى فيباعد بينى وبين حياة الناس البهيجة .
ويرى الله الشيطان يدنو من العالم فيتنبأ « لابنه » بسقوط الإنسان ، ثم يسأله : أين الحبُّ الذى يرضى العدالة الالهية ويخلّص الإنسان من زلته ، فيجيب الابن :
احشرنى فى زمرة الإنسان ، فى سبيل الإنسان .
أنزع نفسى عن صدرك ، وسأرجىء — مختاراً — .
هذا المجد الذى يتلو مجدك ، وفى سبيل الإنسان سأموت .
راضيا ، فدع « الموت » ينقضُّ عَلَىّ بغضبته ،
فلن أظل فى هزيمتى أمداً طويلا .
وبينما الملائكة يرتلون ويسبّحون اقترب الشيطان من العالم وأبصر بالشمس والأرض والقمر ، فدنا من الشمس حيث التقى بأوريل وخاطبه قائلا :
... ... يا أسطع ملائكة السيرافيم .
نَبّئنى : أين من هذه الأفلاك المشرقة .
قد اتخذ الإنسان لنفسه مقاما دائما ؟
فأجابه أوريل :
تلك الأرض مقر الإنسان ومقامه ، وذلك الضوء
نهاره ، ولولاه لطمسه حالك الليل ...
وهذا المكان الذى أشير اليه هو الفردوس ،
هو موطن آدم ، وتلك الظلال السامقة مسكنه

سمع الشيطان جواب أوريل ، فانحنى له إجلالا ، وانصرف ،

ويمَّم شطر الأرض يعلوه النجاح المأمول ، فلما دنا الشيطان من الفردوس استيقظ ضميره ، وارتاع لهول الفعلة الشنعاء التى يُقْبل على اقترافها فصاح :

يالشقوتى ! أين أنفث من نفسى ،

نقمةً ليست تُحَدُّ ويأسا لاينتهى !

فأينما حللتُ كان جحيما ، لأنى فى نفسى جحيم ،

ولما اقترب من الفردوس أثرت فيه روعة المكان وجماله ، كما يحدث لمن يجتازون سفنهم رأس الرجاء ، ويتوغلون فى المحيط فتهب عليهم رياح من الشمال الشرقى تفوح بعطر التوابل الذى تحمله إذ تمر على جزيرة العرب المباركة ، فيتلكأون ويتراخون فى السير إذ تأخذهم نشوة الأريج الطائر مع الريح ، فهكذا أنعش أريج الفردوس فى الشيطان الذى أخذ يقلب النظر فى صنوف الخلائق التى لم يكن له بها عهد ، وأخيراً وقعت عينه على الإنسان :

اثنان هما أنبل الخلائق صورة ، مستقيمان ممشوقان ،

..... كأنهما على الجميع سيدان ،

وعليهما جلال ، إذ فى طلعتيهما الإلهيتين ،

أشرقت صورة الخالق المجيد ...

أما الرجل ففيه التأمل وشدة البأس ،

وأما هى ففيها الطراوة والرشاقة الحلوة الجذابة ،

..... هكذا مضى الزوجان بدأً فى يد ،

أجمل ما يكون الزوجان منذ عرف الحبُّ لقاء الزوجين ،

فآدم خير الرجال منذ نسل الأبناء ،

وحواء بين بناتها أجمل النساء ،

فلما رأى الشيطان آدم وحواء فى مثل ذاك الجلال والجمال يسيران ، أخذته الدهشة للمرة الثانية ، وأخذ يتلون فى صور مختلفة من صنوف الحيوان ، ودنا منهما لينصت إلى حديثهما ، فعرف من آدم أن شيئاً واحداً حرم عليهما فى الجنة ، وهو أن يأكلا من شجرة

المعرفة ، وسمع حواء وهى تقول لزوجها إنها شهدت صورتها منكوسة فى الماء فظنت أنها أجمل مخلوقات الله ، بل أجمل من آدم .

. . . . حتى أمسكتَ يدى بيدك الرقيقة ،

فأذعنتُ ، وعرفت منذ ذلك الحين ،

كيف تعلو الرجولة برشاقتها وحكمتها على جمال النساء ،

وأخذ الشيطان يجوس خلال الفردوس ، وبينما هو كذلك إذا بأوريل يهبط على شعاع من أشعة الشمس الغاربة لينذر جبريل — وهو على رأس الملائكة الحارسين — بأن مَلَكا يثير الريبة بنظراته قد تسلل إلى الأرض ، فوعده جبريل أن يكشف أمره قبل طلوع الفجر .

وأقبل المساء الساكن ، وانتشر الشفق فى لون الرماد ،

فلفّ كل الكائنات بثوبه الهادىء ،

وساد الصمت ، وأوى الحيوان والطير ،

إلى معشوشب المخادع ، فاستكنّ الطير فى أعشاشه ،

وراح فى نعاس ، إلا البلبل اليقظان ،

طفق يغرد طوال الليل أناشيد الغزل ،

وأخذ آدم وحواء يتحدثان قبل أن يأويا إلى مخدعهما ، فقالت حواء :

حلوة أنفاس الصباح ، هذا الإصباح ما أحلاه ،

مع البواكير من فاتن الطير ، وما أجمل الشمس ،

أول ما نشرت — فوق هذه الأرض الحبيبة — ،

أشعتها الشرقية على العشب والشجر ، والثمر والزهر ،

وهى تتلألأ بقطرات النّدى ، ما أمتع عطر الأرض الخصيبة

بعد الرذاذ الرخىّ ، وما أحلى قدوم ،

المساء الجميل ، ثم ما أجمل الليل الساكن ،

بطيره هذا الوقور ، وهذا القمر الجميل ،

وتلك اللآلئ السواطع فى السماء ، هذه الأنجم المحتشدة ،

لـكن لا أنفاسُ الصبح حين يصبح ،
مفتونا بسحر بواكير الطير ، ولا الشمس حين تشرق ،
على هذه الأرض الحبيبة ، ولا العشبُ ولا الثمر ولا الزهر
وهى تتلألأ بالنّدى ، ولا الشّذى بعد الرذاذ
ولا المساء الجميل ولا الليل الساكن
بطيره هذا الوقور ؛ ولا السير فى ضياء القمر
أو فى ضوء النجوم المتلألئ ، حلوٌ بغيرك ؛
ولـكن أين تضىء هذه الأفلاك طيلة الليل ؟ ولمن
هذا المنظر الفاتن حين يأخذ الـكرى بمعاقد الأجفان ؟

فيجيبها آدم قائلا :

لابد لها أن تقطع أفلاكها حول الأرض ،
وهى إذا لم تشهدها الأبصار فى جوف الليل
فلا تضىء عبثاً ؛ لا تظنّى أنه بغير الأناسىّ
يعوزُ السماءَ راءوها ، وينقص اللهَ حامدوه ؛
فألوف الملائـكة تقطع الأرض سيراً
فى خفاء ، حين نستيقظ وحين يأخذنا النعاس ؛
وكل هؤلاء يرون آيات الله ويحمدونه حمداً لا ينقطع
إن أصبح صباح أو أمسى مساء ... ...

ومضى آدم وحواء إلى حيث يقضيان الليل ؛ فأرسل جبريل أعوانه ليتولوا الحراسة ؛ وأمر « إثوريل » و « زيفون » أن يبحثا فى أرجاء الفردوس عن الشيطان الهارب ؛ فوجداه جالساً على مقربة من حواء يلوّن لها أحلامها بما يريد ؛ فمدّ « إثوريل » رمحه ومسّه به مسًّا رفيقاً ففزع الشيطان وارتدّ إلى صورته ، وسيق إلى جبريل الذى أخذ يجادله وكاد يقاتله ، لولا أن تذكر الشيطان أنه لا يستطيع النصر فى قتال مكشوف ، فلاذ بالفرار ، وتفرقت معه ظلال الليل .

ولما استيقظ آدم فى الصباح ، رأى حواء قد احمرت خجلا وحيرة ، وقصّتْ عليه

أحلامها المخيفة ، فسرّى عنها كربها ، ومضيا إلى مكان من الأرض الفضاء وأخذا يرتلان ترنيمة الحمد لله .

عندئذ أرسل الله روفائيل من السماء ، لينذر آدم وحواء بالخطر الداهم ؛ فأنبأهما نبأ عصيان الشيطان وسقوطه من السماء ، وكيف أعد الشيطان عدته للثورة والقتال ؛ وأمر جبريل وميكائيل أن يقودا جند السماء فى وجه هـذا الثائر ؛ ونشب بين الفريقين قتال دام سجالا ، وفى اليوم الثالث أرسل الله المسيح فى عربة ليقف القتال :

وحلّ بينهم يحمل فى يمناه
عشرة آلاف من قواصف الرعد ، يرمى بها
إلى أمام ، فنزلت فى نفوسهم منزل الطاعون
وأخذتهم الدهشة فوقفوا لايقاومون
وطارت عنهم بسالتهم ، وتهاوى كليلُ سلاحهم ،
وفزعوا جازعين لهذا المنظر المخيف
فقذفوا بأنفسهم رءوساً على أعقاب
من حافة السماء هُوِيًّا ، وغضبة الله
تشتعل فى إثرهم ، وهم يهوون فى هاوية ما لها من قرار

وأنذر روفائيل آدم بمثل هذا القضاء يصيب الإنسان لو اقترف جريرة العصيان .

ولما كان روفائيل فى الفردوس لجأ الشيطان إلى التخفى ، فاختفى سبع ليال ، كان خلالها يتشكل فى هيئة الضباب فلا تراه الأبصار ، ودخل فى جوف الحيّة لأنها أنسب أداة للخداع .

وأقبل الصباح ، وهمّ آدم وحواء أن يعملا ، فاقترحت حواء أن يبعد كل منهما عن الآخر أثناء قيامهما بالعمل ، لأنهما إذ يقتربان يتبادلان النظرات والبسمات والأحاديث ، فيدافع آدم عن وجوب « هذا اللقاء الحلو بين النظرات والبسمات » لأنهما ما خلقا للعمل المضنى ، إنما أريد لهما أن يعملا عملا هيناً لذيذ .

فإن تكونى قد مَلِلْتِ الإفراط فى الحديث
ففى وسعى أن أغيب عنك برهة قصيرة ،
فقد تكون العزلة خير رفيق

والاعتزال القصير يدعو إلى حلو اللقاء ؛
لكن شكاً يساورني ، فإني لأخشى
أن يلحق بك الضرّ ... ...

لكن حواء طمأنته بأنها لن تقع فريسة لخداع العدو المتربص إن كان ثمة عدو متربص . وأجابها آدم بأنه يخشى عليها الإغراء وأنهما لو سارا معاً كانا أكثر حذراً وحيطة ، فأبت حواء أن تذعن ومضت وحدها ، وما هي إلا أن صادفها الشيطان وحيدة ، فوقف أمامها وقد تقمص الحيّة ، وأبدى لها من الإعجاب ما يبديه العابد نحو معبوده ، وأخذ يخاطبها بلسان البشر : « يا أميرة هذا العالم الجميل ! يا حواء الباهرة » فسألت حواء : كيف أمكن للوحش أن ينطق بلسان الإنسان ؟ فأجاب بأنها قدرة استمدها حين أكل ثمرة شجرة معينة ، فقد بثت فيه تلك الثمرة عقلا مفكراً وحملته على عبادة حواء لأنها « مليكة على الخلق » ، فطلبت إليه حواء أن يدلها على مكان تلك الشجرة ذات الثمر العجيب ، فأسرع بها إلى « الشجرة المحرمة » ولما ساورتها الوساوس والمخاوف قال :

يا مليكة هذا الكون ! لا تُلقي بالا
إلى ذاك الوعيد بالموت ، ان تموتي ؛
وكيف تموتين ؟ أبالثمرة تموتين ؟ إنها تهبك الطريق
إلى العرفان ؟ أيقتلك صاحب الوعيد ؟ انظري إليّ —
أنا الذي أمسكَ بالثمرة وذاقها ؛ هأنذا أحيا
بل علوتُ بحياتي عما أراد لي « القدر »
لأني لم أرض بما قسم لي فغامرت طامحاً ،
أيُغلَقُ دون الإنسان ما انفتح للحيوان ؟
أم هل يغضب الله حقداً
على هذا العدوان الجميل ؟ ... ...
يستحيل على الله أن يصيبك بالأذى إن كان عادلا ،
فيا أيتها الإلهة البشرية أقدمي ، كلي الثمرة ولا تحجمي !

ووقعت كلمات الشيطان من حواء موقع القبول ، فأخذت تقول :

... ... يوم نأكل

هذه الثمرة الجميلة كتب علينا أن نموت !
أين الموت من هذه الحية ؟ إنها أكلتها ولا تزال حية ،
و باتت ذات علم تتحدث وتفكر وتدرك
وكانت بغير عقل حتى أكلت ؛ ألنا وحدنا
خلق الموت ! أم حرامٌ علينا
هذا الغذاء العقلى ، حلالٌ للحيوان ؟
ها هنا شفاء الجميع ، هذه الفاكهة المقدسة
جميلة فى مرأى العين ، وتستثير الذوق ...
فماذا يمنعنى أن أدنو منها لأطعم جسمى وعقلى معاً ؟
... قالت هذا وامتدت إلى الثمرة يدها الرعناء
واقتطفتها ثم أكلت .....
وتاهت حواء عُجْبًا بنفسها أول الأمر ، ثم أخذت تتساءل ماذا عسى أن يكون وقع ذلك النبأ على آدم ؟ وقالت لنفسها لتخفف من ألمها :
ربما كنتُ الآن فى مكان خفىّ ، إن السماء عالية —
عالية ! إنها قصيةٌ لا ترى على هذا البعد فى وضوح
كلّ شىء على الأرض ، وربما كانت الشواغل
قد صرفت عن رقابتنا
« حارسنا » العظيم ، ... ...
ولكن أى صورة أبدو لآدم ؟ أأنبئه
بما اعترانى من تغير ؟
ماذا لو كان الله قد رآنى
فجاءنى الموت تباعا ؟ إذن فمصيرى إلى فناء
و يزوّج آدم من حواء غيرى
ويحيا معها فى نعيم ، أنا أموت !
وَيحى ! لقد حزمتُ أمرى إذن ، لقد اعتزمتُ
أن يقاسمنى نعيمى وشقوتى ،

إنى أحبه حباً يجعلنى أحتمل الموت فى صحبته
وبغيره لا أطيق الحياة
... ... وآدم عندئذ
ينتظر عودتها فى شوق ، وضفر لها
إكليلا من أحاسن الزهر ليزين جدائلها
لكن جاءت حواء وعلم منها بعصيانها ، فوقف واجماً ، وسقط من يده الإكليل الذى ضفره لحواء ، ثم التفت إلى حواء وأخذ يسرّى عنها :
قد لا تموتين ... ...
فما أحسب أن الله ، وهو الخالق الحكيم ،
— رغم وعيده — سيعمل جادًّا على فنائنا
ونحن زهرة خلقه ... ...
وعلى أية حال فقد وصلتُ مصيرك بمصيرى ،
واعتزمتُ أن أقاسى ماتقاسين من قضاء ؛
فلو دهمك الموت ، كان الموت لى كالحياة

وناولته حواء الفاكهة المغرية الجميلة ، فلم يحجم عن أكلها ، مع أنه يعلم وخيم العواقب ، ولم يكن مخدوعا كما كانت حواء ، لكن كيف له أن يقاوم سحر المرأة ؟ وسرعان ما أحس كلاهما الندم على فعلته ، واختفيا فى الغابة وتدثرا بأوراق الشجر ، وأخذا يبكيان ويوجه أحدهما اللوم للآخر ، فصاح آدم :
هلا أصغيت لكلماتى ولبثت
معى — كما رجوتك — حين تمكنتْ
منك تلك الرغبة العجيبة فى التجوال هذا الصباح المنكود !

فقالت حواء :
ولو بقيت أنت على رأيك ثابتاً
لما زللتُ ولا زللتَ معى

وعاد ملائكة الحراسة إلى السماء ثقالَ الخُطَى ليبلغوا فشلهم ، فعلموا من الله أن القضاء محتوم ، وأرسل « ابنه » إلى الأرض ليحاكم الزوجين ولينزل بهما العقاب لَعْنَتَيْن ،

هما العمل والموت ؛ ومن ناحية أخرى اتخذ الشيطان « الخطيئة » و « الموت » مُميتين له على الأرض .

وتاب آدم وحواء فاستجاب لهما الله ، وأرسل اليهما ميكائيل ليعلن أن الموت لن يقع عليهما حتى يكملا التوبة ، أما الفردوس فلن يعود لهما مقرا ، فأخذت حواء تنظر إلى الفردوس بعين باكية ، واستسلم آدم لعبراته .

وآن أوان الخروج ، فهبط آدم وحواء إلى الأرض وأخذا يضربان فى أرجائها يداً فى يد يسيران بخطو وئيد ...

* * *

تلك خلاصة « الفردوس المفقود » . ومما أخذ عليها أن الشاعر — أراد أو لم يرد — أن يكون بطله الشيطان لا آدم ، وقد يكون ذلك صحيحاً فى الجزءين الأولين من الملحمة ، اللذين اضطر فيهما الشاعر أن يجعل الشيطان شديد البأس قوى العزيمة ليهيء الطريق للصراع العنيف المقبل ، وليثير الاشفاق والخوف فى نفس القارىء حتى يزداد عطفه على أبويه الأولين ويزداد شكره لمن مهد له الخلاص . لكن لم يَفُتْ الشاعر بعد ذلك أن ينقص من جبروت الشيطان شيئاً فشيئاً حتى تضاءل وهَزُلَ فى « الفردوس المردود » . ألا تذكر حين كان الشيطان متنكراً يُسِرُّ فى أذن حواء وهى نائمة ، كيف فزع حين لمسه « إثوريل » برمحه ؟

« الإنسان » لا « الشيطان » هو بطل الملحمة ، فهو يستدر عطف القارىء على الرغم من هزيمته ، ثم تجيء بعد ذلك قصيدة « الفردوس المردود » فينتصر فيها الإنسان الالهى على مغريات الشيطان نصراً حاسما .

وللشاعر عدا هذا كله قصيدة رائعة عنوانها « شمشون الجبار » [1] هى أقرب إلى المأساة المسرحية منها إلى القصيدة ، وهو يصور نفسه فى شمشون ، فقد عانى من النساء مثل ما عاناه شمشون ، وكفّ بصره كما حدث لشمشون ، ووقع أسير أعدائه كما وقع شمشون .

---

(١) Samson Agonistes اى قصة شمشون فى فصل الأدب العبرى فى الجزء الأول من هذا الكتاب .